إشكالية ترسيم العقائد في الفكر الإسلامي

– مسألة خلق القرآن أيموذجا-

د.زبيدة الطيب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.

مقدمة:

العلاقة بين السلطة المعرفية والسلطة السياسية من الإشكاليات؛ التي أضحت موضوع بحث وتتبع العديد من المفكرين والباحثين في العالم العربي والإسلامي، سواء في عمقها التاريخي أو في امتداداتها الراهنة. وكثيرا ما يطرح الموضوع من زاوية استخدام السلطات والأنظمة للعلماء وللطبقة المثقفة من أجل فرض آرائها وإلزام الناس بها.

غير أن الناظر في التاريخ الإسلامي؛ يلحظ وجها آخر للموضوع يبدو فيه استخدام العلماء للسلطة السياسية. ويظهر ذلك جليا فيما يعرف بمسألة "خلق القرآن"؛ حيث ضغط المعتزلة على الخليفة العباسي المأمون من أجل ترسيم القول بخلق القرآن. وهنا نتساءل عن المقصود بترسيم العقائد في الفكر الإسلامي؟ وعن الدور الذي مارسه المعتزلة في هذا الاتجاه بخصوص هذه المسألة؟ وعن تداعياته التاريخية والراهنة. وعليه سيتضمن المقال جملة من العناصر تتمثل فيما يلي:

أولاً: مفهوم الترسيم

ثانيا: مسألة "خلق القرآن" ودور المعتزلة في ترسيمها

ثالثا: التداعيات الفكرية والواقعية لمسألة الترسيم

أوّلاً: مفهوم الترسيم في اللغة: تشير لفظة الترسيم في واحدة من معانيها اللغوية إلى معنى الالتزام بالأمر وعدم تخطيه أو تعديته أو رفض تنفيذه. يقال: أنا أرتسِم مراسمَك : أسير عليها ولا أتخطاها. ومثله: ارتسم الأمرَ : امتثله :- رسم له الرئيس خطةً فارتسمها وارْتَسَمَ يقال : أَنا أَرْتَسِمُ مراسمك : لا أَتَخَطَّاها؛ أي أن أحدا وضع أمرا أو خط طريقا أو شرع تشريعا وأنا أرتسمه فأسير

وفقه وألتزم به سواء صادف ذلك في نفسي رغبة أو كان ضد رغبتي وقناعاتي. وهو ما يرجح أن الترسيم غالبا ما يكون من جهة عليا.

وربما إلى ذلك يشير المعنى الآخر للترسيم وهو قولهم: ترسّم في الوظيفة: ثُبِّت فيها وعُيِّن[1] فالتعيين والتثبيت جاء من جهة عليا تمتلك السلطة أو القوة؛ كأن تكون جهة حكومية تجعل المعني بقرار التثبيت ملزما بالتنفيذ والالتزام.

كما يعني أيضا ضرورة الالتزام بمضمون ما يحمله القرار وأن مخالفته قد تفضي إلى تبعات غير محمودة؛ وهي بذلك تستبطن مفهوم التضييق والإكراه من جهة كون المتلقي ملزم بالاتباع وعدم التخطي. ومن جهة كون صاحب الترسيم هو من يمتلك سلطة مَّا تحيل آراءَه ومواقفه أوامر يجب تنفيذها ويمنع تخطيها.

وجاء على لسان أبي الوفاء التفتازاني في تعريفه مصطلح أهل السنة بأنها جماعة من المسلمين ترسمت سنة النبي صلى الله عليه وسلم وطريقة أصحابه في العقيدة.[2]

وفي كل الأحوال نخلص إلى أن في لفظة الترسيم في وضعها اللغوي ما يؤشر إلى نوع من الإكراه والضغط والتضييق.[3]

وأما العقائد؛ فهي جملة من الأحكام القلبية أو النظرية التي تستقر في القلب، ويعتنقها الإنسان ويؤمن بها عن قناعة ومن غير إكراه أو ضغط، بغض النظر عن صحتها أو خطئها، ويبذل النفس والنفيس من أجل الدفاع عنها والمحافظة عليها.

وهي في الإسلام؛ تتمثل في الأحكام القلبية التي تضمنتها أركان الإيمان الستة الواردة في قوله تعالى:" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله."

1/ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة،ط1، عالم الكتب، 2008، ج2، ص8919.

2/ أبو الوفاء التفتازاني، علم الكلام وبعض مشكلاته، دط، القاهرة، المكتبة الحديثة، 1966، ص59.

3/ وإن كان يفهم منها جوانب أخرى تنظيمية إذا تعلق الأمر بالمراسيم الرئاسية التي يقصد بها تنظيم شؤون البلاد والعباد.

(البقرة/) وقوله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره.)[1]

ولذلك وجدنا الإسلام يرفض إكراه الناس على اعتناقه. وبدا ذلك في التصريح الخالد؛ وهو قوله تعالى:" لا إكراه في الدين."(البقرة/ 256) ووجدناه في المقابل يتجاوز عن الكفر تحت الإكراه كما جاء في قوله تعالى:" إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان."(النحل/ 106)[2]ووجدناه، أيضا، يوفر لغير المسلمين مساحة واسعة للبقاء على دينهم فقال:" لكم دينكم ولي ديني."(الكافرون/ 06)

من هنا كانت سمة الإيمان والاعتقاد في الإسلام؛أنها مسألة ترتبط بالحرية والإرادة الكاملة من جهة. وترتبط بالاقتناع القائم على المعرفة من جهة ثانية ارتباطا وثيقا. ومن ثمة كان الإيمان بالإسلام واعتناقه واتباعه مرهون بتوفر عنصري الحرية والمعرفة.

بيد أن الناظر في مضمون اللفظتين "الترسيم" وما يتضمنه من معاني التضييق والإكراه. و"العقيدة" وما تقتضيه من أجواء الحرية والاقتناع؛يلحظ كأن الأمر يعني الجمع بين مفهومين متناقضين؛ إذ لا يمكن أن نتصور وجود الاعتقاد أو الإيمان مع الإكراه أو التضييق أو الضغط. وهذا يعني أن هناك شكلا آخر من أشكال الاعتقاد أو الإيمان؛ شكل تغيب فيه الحرية والاقتناع كشرط ضروري للإيمان، ويحضر فيه عنصر يقضي على الحرية ويستبدلها بشرط القوة الذي تقوم به السلطة السياسية أو من يقوم مقامها.

فترسيم العقائد ، بناءً على ما سبق، يعني تجاوز الأطر الروحية والمعرفية الشخصية القائمة على الحرية والإقناع، والاعتماد الكلي على عامل قوة السلطة السياسية في إلزام الناس وإجبارهم على

1/ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دط، دار الريان للتراث، 1407هـ/ 1986م،كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة،ج1، ص144.

2/ نزلت في الصحابي عمار بن ياسر، كما جاء في تفسير الطبري، عن ابن عباس أن المشركين أصابوا عمار بن ياسر فعذبوه، ثم تركوه ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي لقي من قريش ، والذي قال : فأنزل الله تعالى ذكره عذره في قوله:" من كفر بالله من بعد إيمانه..." إلى قوله:" ولهم عذاب عظيم."[ابن جرير الطبري، تفسير الطبري، حققه وخرج أحاديثه: محمود شاكر، القاهرة، دار المعارف، ج17، ص 303.]

اعتناق هذه العقيدة أو تلك. وتحويل الإيمان من مسألة شخصية إلى مسألة تتجاوز الشخص لتتعلق بالسلطة وبإرادة الحاكم وما يقال أنه مصلحة الدولة أو المجتمع.

وإذن ترسيم العقائد؛ هو أن تستند سلطة سياسية مّا إلى القوة من أجل إكراه عموم المجتمع على اعتناق عقيدة ما بوصفها الحقيقة التي تراها. وحيث تتوارى إرادة الفرد تتبدى إرادة السلطة؛ التي تعتمد بشكل أساسي على القوة المادية،والتي تتمثل في ما تمتلكه الدولة من أدوات وآليات البطش والسجن والتعذيب وما شابه.

وقد شهد التاريخ الإسلامي فصولا من عمليات ترسيم لآراء وفهوم للعقيدة الإسلامية، أو بعض جزئياتها استعمل فيها بعض "العلماء" و" الفقهاء" و"القضاة" خاصة بعد تحول الخلافة الراشدة إلى ملك على يد بني أمية؛ ذلك أن " ... انتقال الخلافة إلى ملك حوّل تجربة دولة المدينة إلى لحظة جسمت ميلاد التاريخ السياسي الفعلي باعتباره تاريخا للصراع الدنيوي المعتمد على آليات القهر والجبروت من دون مراعاة مطالب الرسالة الجديدة التي تأسس في إطارها هذا الملك."[1]مثل القول بالجبر على حساب الموقف القرآني الذي ينطق بالحرية والإرادة الإنسانية.

وكما شهد التاريخ الإسلامي فصولا استعمل فيها العلماء؛ فقد شهد، أيضا، محطات استعمل فيها العلماءُ السلطةَ. ولعل أبرز محطة يحتفظ بها التاريخ الإسلامي هي مسألة "خلق القرآن" التي حدثت زمن حكم الخليفة العباسي المأمون وشركاؤه من الطبقة المثقفة؛ ونقصد بهم المعتزلة والتي استعمل فيها هؤلاء الخليفة المأمون من أجل ترسيم مذهبهم في القول بأن القرآن مخلوق؛ أي جعل هذا القول عقيدة الدولة التي ينبغي أن تؤمن بها، وأن تحمل الناس عليها بحد السيف.

والمأمون، كما يقول أحمد أمين، كان "... مثقفا ثقافة واسعة عميقة، وشغف من أجل ذلك بالبحث العلمي والأدب واتخذ له رجالا يجتمعون في قصره فيتجادلون ويتناظرون وكان عقله عقلا فلسفيا حراً في تفكيره مع التقيد بأصول الدين."[2]. وفي عهده "... بلغ الالتحام بين الثقافة العربية

1/ كمال عبد اللطيف، في الاستبداد: بحث في التراث الإسلامي، ط1، بيروت، منتدى المعارف، 2011، ص181

2/ أحمد أمين، ضحى الإسلام، ،ط10،بيروت، دار الكتاب العربي، دت، ج3، ص163.

والثقافات الأخرى أوجه؛ إذ أحب الفلسفة والعلوم وأخذ يشجع المترجمين ويرسل الوفود إلى فارس واليونان [...] لاقتناء الكتب بغية تعريبها."[1] وقد " استطاع[...] بذكائه وثقافته أن يستوعب العناصر الثقافية لهذه الكتب المترجمة وأن يشفي غليله بمطالعة الكتب الفلسفية في الإلهيات والطبيعيات والأخلاق وليس بدعا بعد ذلك أن نجد الخليفة أكبر مؤيد للمعتزلة."[2]

وأما المعتزلة فهم فرقة كلامية خرجت من رحم بيئة حملت العديد من الإشكالات العقدية الحادثة أبرزها مصير مرتكب الكبيرة هل هو في الجنة أم هو في النار؛ فقد رأى الخوارج أن من ارتكب الكبيرة كافر يستحق أن يخلد في النار لأنه أتى ما يوجب كفره وخلوده فيها. في حين رأت المرجئة أنه مؤمن لا يستحق الخلود في النار لأن ما جاء به غير موجب لاسم الكفر ولا لمصير الخلود في النار. وبين هذين الرأيين خرج واصل بن عطاء ليقول لمن حضر مجلس الحسن البصري بأن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا هو كافر بل هو في منزلة بين المنزلتين؛ إذ هو لم يفعل ما يوجب كفره وخلوده في النار وفي الوقت نفسه أتى ما لم يعد به مؤمنا مستحقا للجنة. وهذه هي الرواية التي تواترت في نشأة المعتزلة وسبب تسميتهم.[3]

وقد تطورت هذه الفكرة في أزمنة لاحقة لتصير أصلا من أصول المعتزلة الخمس، وهذا الأصل يرتبط ارتباطا مباشرا بأصل التوحيد؛ بحيث يرى المعتزلة بأن القول بالكفر والخلود في النار مناف لمقام الألوهية في الاعتقاد بأن الله تعالى غفور رحيم، وأن القول بالإيمان واستحقاق الجنة فيه استهتار بمقام الألوهية وقدسيتها.

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين ففيه استحقاق لما يجب للإنسان؛ إذ ينال ما يستحق وما تكسب يداه من غير مس بمقام الألوهية ومن غير الشدة التي يبديها الخوارج أو الاستهتار الذي تعتقده المرجئة. يقول واصل بن عطاء: "... إن الإيمان خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنا، وهو اسم مدح، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمنا، وليس

1/ علي الشابي، مباحث في علم الكلام والفلسفة، ط1، ليبيا، دار الكتب الوطنية،2002، ص33

2/ المرجع نفسه، ص33

3/ أنظر: أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، ط5، بيروت، دار النهضة، 1985، ج1، ص108.

هو بكافر أيضا لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها؛ ففاعل الكبيرة يشبه المؤمن في عقيدته ولا يشبهه في عمله. ويشبه الكافر في عمله ولا يشبهه في عقيدته فهو في منزلة بين المنزلتين."[1]

وهم في أعين المستشرقين أرباب الفكر والتأويل العقلي في الإسلام، وإليهم يعود الفضل في إدخال العقل إلى ساحة التفكير الديني الإسلامي؛ إذ"...كانوا الأوائل الذين وسعوا معين المعرفة الدينية بأن أدخلوا فيها عنصرا آخر قيما وهو العقل..."[2]

وهم في أعين خصومهم ليسوا إلا أسماء نكرة عملت على تقليد وتبني منهج دخيل أدى بهم إلى الانحراف والزيغ عن عقيدة السلف الصالح من الأمة. وشكلوا بذلك الفكر الدخيل والمنحرف "...فرقة ظهرت في أوائل القرن الثاني وسلكت منهجا عقليا متطرفا في بحث العقائد الإسلامية."[3] وأما الفكر الاعتزالي فهو، بحسب ما يرى الخصوم، تلفيقات استقاها المعتزلة من المقالات والآراء السائدة في عصرهم آنذاك خاصة تلك التي انتشرت كثيرا في البصرة.[4]

ثانيا: مسألة خلق القرآن:

مسألة خلق القرآن هي مبحث ذي علاقة بمسألة صفات الله تعالى، وبالأخص صفة الكلام؛ حيث يذهب المعتزلة إلى تفسير كلام الله تعالى انطلاقا من مفهوم التوحيد، الذي يقوم على نفي صفات الله تعالى؛ وهي المقالة التي قال الشهرستاني أنها كانت غير نضيجة عند واصل بن عطا[5]

1/ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تعليق: أحمد فهمي، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992،ج1، ص68.

2/ جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة وتعليق:محمد يوسف موسى، دط، بيروت، دار الرائد العربي، 1946، ص90-91.

3/ عواد بن عبد الله المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، ط4، المملكة العربية السعودية، الرياض، مكتبة الرشد، ص14

4/ أنظر: المرجع نفسه، ص 28.

5/ أنظر: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، المصدر نفسه، ج1، ص 40.

ومعنى نفي الصفات هو عدم الإقرار بها زائدة عن الذات أو خارجة عنها. بل إن الصفات هي عين الذات، وأي اعتقاد بوجود صفات زائدة عن الذات هو اعتقاد بوجود ذوات كثيرة وهو تعدد وشرك. يقول واصل بن عطا: "... من أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين."[1]

ومن ثمة جاء تحليلهم لصفة الكلام التي كان الإقرار بها يشعرهم "... بتصدع في وحدة الذات الإلهية؛ إذ لم يروا في صفة الكلام شيئا أقل من حذف أو إلغاء وحدة الذات الإلهية." [2] وكان عليهم أن يبحثوا عن صيغة توفيقية بين نفي صفة الكلام –حفاظا على التوحيد– وكون القرآن كلام الله؛ إذ كيف يكون القرآن كلام الله تعالى في الوقت الذي يقولون فيه بنفي صفة الكلام؟ ومعلوم عند جميع العقلاء أن الكلام لا يصدر إلا من متكلم أو ممن له صفة الكلام.

لم ينكر المعتزلة أن يكون الله متكلما،ولا أن يكون القرآن كلامه تعالى.ولكنهم أنكروا أن يكون الكلام صفة أزلية له تعالى؛ لأن ما صح أن يكون أزليا هو الصفات الذاتية وليس الصفات الفعلية. ولما علم عندهم أن الصفات الذاتية هي ما قصروه على "... كونه قادرا، عالما، حيًّا، سميعا، بصيرا، مدركا للمدركات وموجودا مريدا وكارها."[3] فقد ثبت أن الكلام ليس من بينها؛ لأن الكلام صفة فعلية. وعندهم" ... ليس الكلام والذات شيئا واحدا."[4]ولما كان الكلام صفة فعلية فإنه ليس من شأنه أن يوصف بالقدم أو أن يوصف بها الله تعالى فيما لم يزل.

وإذن ليس الكلام صفة قديمة أو أزلية، بل هو صفة حادثة ومخلوقة. والله تعالى متكلم؛ بمعنى أنه فاعل للكلام ومحدثه وخالقه. يقول القاضي عبد الجبار: "...وأما مذهبنا في ذلك فهو أن القرآن كلام الله تعالى ووحيه وهو مخلوق محدث."[5] بحروفه وألفاظه ومعانيه "... يخلقه الله تعالى سبحانه في الأجسام على وجه يسمع ويفهم معناه. ويؤدي الملك ذلك إلى الأنبياء عليهم السلام

1/ المصدر نفسه ، ص 40

2/ جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، مرجع سابق ،ص 101.

3/ القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ط2، تحقيق: عبد الكريم عثمان، القاهرة، مكتبة وهبة، 1988،ص 129.

4/ علي سامي النشار، نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام، ط8، القاهرة، دار المعارف، دت. ص 470.

5/ القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص528.

بحسب ما يأمر به عز وجل ويعلمه صلاحا."[1]وهكذا حدث مع سيدنا موسى ومع غيره من الأنبياء.

وقد اعتمد المعتزلة على ما اعتبروه أدلة مستوحاة من العقل؛ بوصفه مصدرا للمعرفة وموجها للتفكير في فكرهم، من دون التفريط في الدليل النقلي الذي هو عندهم مساحة للتحليل اللغوي والتأويل العقلي؛ حيث يجتمع في فكرهم ما أسماه عبد الستار الراوي بالانتقائية اللغوية والإبداعية العقلية فتتشكل أدلتهم من "... مهمات اللغة تحليلا والعقل تأويلا في علاقة تبادلية."[2]

إن هذا الفهم الجديد لصفة كلام الله تعالى، لم يكن معروفا أو منتشرا في أوساط العلماء فضلا عن العوام. وقد بدأ المعتزلة بنشره وإطلاع الناس عليه سالكين في ذلك مسلكا عموديا بدأ من هرم السلطة؛ حيث توجهوا إلى قصر الخلافة وإلى مجلس الخليفة العباسي المأمون؛ المعروف بشغفه الفلسفي وحبه لمنهج المعتزلة العقلاني في فهم وتفسير مسائل العقيدة الإسلامية. وأوحوا إليه بانحراف فهم الفقهاء والمحدثين لمسألة كلام الله تعالى؛ وهو الفهم المنتشر بين الناس؛ والذي يستبطن الشرك وتعدد القدامى في رأيهم، كما شرحناه سابقا، وأن فهمهم هو الحقيقة التي تنطق بها حجة العقل وقطعيات الكتاب.

وقد نجح المعتزلة في إقناع المأمون برأيهم القاضي بدفع ما اعتبروه شبه التعدد والشرك بالله تعالى ضد فهم الفقهاء والمحدثين، وهو المعجب بآرائهم والمنبهر بحججهم وأدلتهم بخصوص مسألة خلق القرآن على وجه التحديد.ومن ثمة "... حملوا الحكومة أن تتدخل بسلطانها وسيوفها وسياطها وجنودها وولاتها في هذه المسألة وقد فعلوا كل ذلك لأنهم كانوا يأملون أن يصبح الاعتزال مذهب الدولة الرسمي كما أن الإسلام دينها الرسمي فإذا تم ذلك انتشر الاعتزال تحت

1/ القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، دط،تحقيق: محمود الخضيري ومحمود قاسم، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دت،ج7، ص 3.

2/ عبد الستار الراوي، العقل والحرية، ط1، بيروت، دار المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1400هـ/ 1980م،ص 75.

حماية الدولة وأصبح أكثر المسلمين المعتزلة. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف فلا ضير من سقوط بعض الضحايا فالغاية تبرر الوسيلة ولا تصل إلى الحق إلا بالخوض في كثير من الباطل."[1]

وقد رأى المأمون، من منطلق ما اعتبره، دوره وعظم مسؤوليته في حماية الدين أنه "... يجب أن يرد الناس عن ذلك كما يرد الكافر عن كفره."[2]لأن "... أمير المؤمنين [لا يرى] لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين ولا نصيبا من الإيمان واليقين."[3]خاصة وأنه "... الخليفة القوام على الدين المنوط به تنفيذ أحكام الشريعة."[4] لذلك نجده قد استنفر الدولة وأدواتها من أجل القيام بواجباته في حراسة الدين؛ ففتح السجون والمعتقلات للمخالفين والرافضين، وعلى رأسهم، الفقهاء والمحدثون والرافضون للقول بخلق القرآن. وبدأ التعذيب والتنكيل والاستنطاق على طريقة محاكم التفتيش؛ فمات وعذب ونفي الكثير باسم الانتصار لعقيدة التوحيد وحمايتها من الشرك والتعدد. وخرجت المسألة من القصر إلى الشارع، وإلى عوام الناس ودخلت البيوت والحوانيت والأماكن العامة.

وهكذا انتقلت المسألة من اختلاف حول فهم صفة كلام الله تعالى إلى حرب اصطفت فيها الدولة بأجهزتها ضد المخالفين والقائلين بغير قولها، بعد ما أصرت الأخيرة على أن يصير فهمها عقيدة ينبغي أن يلتزم بها الناس. وفات المأمون وأركان دولته؛ أن لا مجال لاعتناق العقائد بحد السيف، وأن العقائد تنتصر بالبرهان والحجة وليس بالضغط والإكراه.

وبالرغم من أن الروايات تواترت حول مسؤولية المعتزلة، وأنهم كانوا وراء تحريض المأمون ضد الفقهاء والمحدثين ومن شايعهم في رفض القول بخلق القرآن.إلا أن آراء أخرى تذهب إلى" ... عدم اشتراك زعماء المعتزلة في هذه المحنة. فأبو هذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام، ومعمر بن عباس السلمي وهشام الفوطي والجاحظ وأبو يعقوب الشحام. وهؤلاء من معتزلة البصرة. وجعفر

1/ أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج3،ص67.

2/ المرجع نفسه، ص 171.

3/ محمد ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك،ط2، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف،1967،ج8، ص633.

4/ فهمي جدعان، المحنة: بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام، ط1،د م ن، دت، ص59.

بن حرب وجعفر بن مبشر ومحمد بن عبد الله الإسكافي وهؤلاء من معتزلة بغداد. وكل هؤلاء قد عاصروا المحنة التي بدأت في أواخر عهد المأمون واستمرت إلى حوالي أواخر عهد الواثق."[1]وتقول بأن أحمد بن أبي داؤود منفردا هو من أوحى للمأمون بذلك. يقول ابن كثير: "...إن الذي حمل إصر هذه المحنة هو أحمد بن أبي داؤود الإيادي المعتزلي(240هـ) فهو الذي حمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن."[2] وكان من أجهلهم بالعلم والكلام."[3]

كما نفى الجابري أن تكون للمعتزلة علاقة بتلك الحادثة، ورأى بأن الموضوع يتعلق بظروف أمنية خاصة كانت تتهدد الدولة، وأن مسألة "خلق القرآن " ما هي إلا وسيلة استخدمها المأمون من أجل قمع محاولات "الشغب" التي كانت دوائر هنا وهناك تحاول إثارتها. ويعتبرها قضية بسيطة وبريئة ويؤكد أن للمسألة جانبان"... ظاهر ومخفي، منطوق به ومسكوت عنه في هذه القضية. أما الظاهر والمنطوق به فهو الأسئلة والأجوبة حول"خلق القرآن". أما المخفي والمسكوت عنه فهو "الشغب" على الخليفة ومحاولة الخروج عليه والثورة ضده وانتزاع السلطة منه."[4]

بل وتذهب آراء أخرى إلى دحض مقولة أن المعتزلة إنما أرادوا بقولهم بخلق القرآن الدفاع عن التوحيد ضد عقيدة التثليث عند النصارى. وترى أن الهدف من وراء إثارة المسألة كان التعمية على ما كان يجري داخل القصور من انحرافات، وقد قصد بها المحدثون والفقهاء واستعمل فيها المعتزلة. يقول الباحث عبد الفتاح الفاوي: "... ومن الواضح أن هذه المحنة لم يكن هدفها المحافظة على العقيدة من تلبيس النصارى كما يوجد ذلك في الكتب التي أرسلها المأمون إلى ولاته وإنما كان سترا للفساد القائم في قصور الخلفاء ومشغلة للناس عامة والعلماء خاصة عن انتقاده فلقد كانت قصور الخلفاء غاصة بمجالس اللهو والخمور والقيان[...] وكان التنكيل بهؤلاء(يقصد المحدثون

1/ عبد الفتاح الفاوي،المقالات العشر في منهج علم الكلام وقضاياه،دط، جامعة القاهرة، 1993ص187.

2/ الحافظ بن كثير، البداية والنهاية،ط8، بيروت، دار المعارف، 1990، ج10،ص 319

3/ المصدر نفسه، ص 333

4/ محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، ط3، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، أفريل 2008،ص58.

والفقهاء) ردعا لهم وإرهابا لغيرهم ممن ينتقدون ما يجري في قصور الخلفاء من فساد."[1]

والرأي نفسه يذهب إليه فهمي جدعان؛حيث يرى أن لا علاقة أصلا للمعتزلة بالفتنة التي أثيرت تحت عنوان "خلق القرآن" ويؤكد بأنه "... ليس لدينا أي دليل على دور لهم (أي المعتزلة) في هذه المسألة في عهد المأمون." [2]. ويجزم أن خليفته المعتصم لم تكن له صلة كبيرة بعموم المعتزلة، بل كانت له علاقة بالإسكافي (الأب) الذي يذكر ابن النديم أن له كتابا في "إثبات خلق القرآن" وآخر في "الرد على من أنكر خلق القرآن" ويقول: " ... لكن من البديهي أنه لا علاقة لذلك باستمرار الامتحان بالقول بخلق القرآن في عهد المعتصم. كما أننا لا نتبين للإسكافي نفسه أي دور في هذه المحنة."[3]والأمر نفسه يراه في زمن الواثق؛ حيث يقول: "... فإن الذي ينبغي أن يتقرر هو أن المعتزلة لم يؤدوا أي دور بارز في عهد الواثق. ومن العسف بمكان عظيم أن يقال إنهم كانوا وراء استمرار المحنة معه، أو أنهم قاموا بدور نشط في ظله."[4]لينتهي إلى القول بأنه "... ليس بين أيدينا على الإطلاق ما يثبت دعوى القول إن المعتزلة [...] كانوا وراء هذه المحنة أو أنهم قادوا حملات التفتيش المتعلقة بها."[5] والمسألة برمتها، كما يرى جدعان، تتعلق بشخص المأمون؛ فيقول: "...والحقيقة أن المحنة كانت قرارا شخصيا من جانب المأمون والتزاما سياسيا من جانب خليفتيه المعتصم والواثق."[6]و أن "... تبني هذه العقيدة من جانب المأمون كان بكل تأكيد اختيارا حرا من المأمون نفسه."[7] وهكذا يخلي جدعان ساحة المعتزلة من أية مسؤولية بخصوص مسألة خلق القرآن وامتحان العلماء فيها.

على أن ذلك هو خلاف ما يذهب إليه الباحث في التاريخ عبد العزيز الدوري؛ حيث يقول:

1/ عبد الفتاح الفاوي، المقالات العشر، مرجع سابق،ص 196-197

2/ فهمي جدعان، المحنة: بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام، ط1،د م ن، دت، ص105.

3/ المرجع السابق، ص125

4/ المرجع نفسه، ص 131.

5/ المرجع نفسه، ص 132.

6/ المرجع نفسه، ص132

7/ المرجع نفسه، ص 105.

" ...المأمون الخليفة القوام على الدين المنوط به تنفيذ أحكام الشريعة؛ قد تبنى مذهب المعتزلة وجعله المذهب الرسمي لدولة الخلافة. ثم ما لبث أن انصاع لرغبة المعتزلة في اضطهاد علماء الأمة ورجالها."[1] وما يذهب إليه محمد أركون، أيضا، إذ يقول:"... خاض المسلمون فيما بينهم مناقشات حامية حوله عندما حاول مذهب المعتزلة أن يفرضوا رسميا تلك النظرية الشهيرة القائلة بأن القرآن هو كلام الله المخلوق. وكان أول مذهب يبتدئ القول بذلك وينظر له. ثم اندلع صراع بين المسلمين حول هذه المسألة ووصل ذروته عندما حصلت المحنة ضد المذهب الحنبلي وزعيمه أحمد بن حنبل "[2] وهو ما يعني أن المعتزلة كانوا وراء تفجير الموضوع .

وكان الترسيم قد بدأ باستخدام وسائط الدولة المادية والأدبية؛ حيث استعملت القصور كفضاءات؛ نظمت فيها المناظرات، ومجالس الجدل بإشراف مؤسسة الخلافة لمناقشة المسألة مع المخالفين وإظهار ضعفهم وضعف حججهم وإرباكهم، وبالتالي تهافت موقفهم. يقول الباحث في التاريخ شاكر مصطفى:"... أعلن المأمون تبني الدولة رسميا للمبدأ الاعتزالي في (خلق القرآن) وفرض هذا المبدأ على الناس بالقوة وحملهم عليه مرغمين. وعقد له مجالس الجدل[...] وعزل من لا يقول بذلك من القضاة وأهين." [3]

كما فتحت المعتقلات والسجون وعذب المخالفون، وأهين كل من قال قولا مخالفا للمعتزلة والخليفة. وأهدر دم من جاهر بالقول بقدم القرآن أو عدم القول بخلقه. وخرج الموضوع من مجالس القصور والسجون إلى الشوارع والحوانيت والجوامع وبيوت عامة الناس. ينقل الطبري نص الرسالة التي بعث بها المأمون إلى عامله على بغداد إسحاق بن إبراهيم، وفيها يقول: " وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته...في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة

1/ عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد، 1945، ص35.

2/ محمد أركون، القرآن: من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2001.ص11

3/ شاكر مصطفى، دولة بني العباس، ط1، وكالة المطبوعات، الكويت، 1973، ج1، ص 412.

عن حقيقة دينه وتوحيده ...وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه لضعف آرائهم ونقص عقولهم... وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين على أنه (أي القرآن) قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه ....ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة ...ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال...حتى مال قوم إلى موافقتهم عليه تزيينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم... وكان ذلك غايتهم التي إليها أجروا وإياها طلبوا.[1]وعليه قرر المأمون ضرورة معاقبتهم وكسر شوكتهم لقولهم في دين الله غير الحق فيقول في الكتاب: " فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورؤوس الضلالة...فأجمع من حضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه وأَعْلِمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ...فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ...فامرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومساءلتهم على علمهم في القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم...واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك." [2]

وسواء كان المحرض شخص أحمد بن أبي داؤود، كما يذهب إليه المدافعون، أو المعتزلة كما تناقلته الكتب ومدونات الفرق والكلام والتاريخ وشاع بين الدارسين والمتلقين؛ فإن الأمر لا يخرج عن كونه استغلال من جهة الطبقة المثقفة أو الفئة العالمة والنخبة في المجتمع سلطة القوة أو الحاكم من أجل ترسيخ قولها أو فهمها لمسألة عقدية معينة، وأن المسألة خلقت إشكالات فكرية وواقعية،وتركت تداعيات لا تزال المجتمعات الإسلامية تعاني منها إلى اليوم؛ فـ"... الظروف

1/ ابن جرير الطبري،تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج8، ص632.

2/ المصدر نفسه، ص633

والملابسات التي جرت فيها هذه"المحنة" لم يتم تجاوزها بصورة نهائية، بل هناك في واقعنا العربي والإسلامي ما يمكن اعتباره امتدادا لها أو إعادة إنتاج لها بأسماء ومعطيات جديدة." [1]

ثالثا: التداعيات الفكرية والواقعية لترسيم القول بخلق القرآن:

يبدو أن ما تم على يد المأمون، وبعد ذلك على يد المتوكل من ممارسات عنيفة صاحبت محاولة ترسيم مسألة خلق القرآن.ثم ترسيم القول بعدم خلقه؛ قد خلف وراءه إشكالات معقدة وآثار بالغة التعقيد على كل المستويات، خاصة منها المستوى الفكري.

فقد خلقت حادثة خلق القرآن شكلا جديدا في علاقة العلماء والطبقة المثقفة بالسلطة والطبقة الحاكمة؛ ففي الوقت الذي ظلت فيه علاقة العلماء بالسلطة، منذ زمن بني أمية، يطبعها في العموم استعمال العلماء من أجل تبرير سلوكات الحكام وتوجهات السلطة. نجد في حادثة خلق القرآن أن شكلا جديدا من العلاقة قد ظهر؛ ونقصد به استعمال العلماء وأهل الفكر للسلطة من أجل تمرير أفكارها وفهومها، بل وترسيمها لتكون عقيدة الدولة التي يجب على جميع الناس الالتزام بها. ومعنى ذلك أن تتبنى النخب الفكرية أو العلمائية فهوما وتفسيرات بخصوص العقيدة الإسلامية؛ وتوحي للسلطات السياسية والحاكمة بأنها الحقيقة؛ فتعمل الأخيرة على ترسيمها، أي جعلها عقيدة الدولة باستعمال مقدرات السلطة وإمكاناتها المادية والمعنوية وإكراه الناس على اتباعها، ولو صادمت قناعاتهم الفكرية أو الدينية.

إن تلك العلاقة التي أفصحت عنها حادثة خلق القرآن لا تتبدى، فقط، في مجرد تطويع العلماء والمفكرين للإمكانات المعنوية والمادية للدولة من أجل فرض فكرة أو فهم وترسيمه. بل تتبدى في خلق دور وسلوك غير طبيعي للعلماء والنخب؛ يتمثل في استعداء الدولة وتحريضها ضد مخالفيهم. واستعداء باقي المكونات الفكرية والدينية ضد بعضهم البعض عن طريق التكفير والتضليل والتبديع والتجهيل، بل وإصدار فتاوى القتل والتصفيات الجسدية.

وكانت إحدى تجليات هذا السلوك غير الطبيعي للعلماء والنخب؛أن بات تكميم أفواه

1/ محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية ....مرجع سابق، ص86

المخالفين ومصادرة آرائهم من مهمات العلماء والنخب، ولم تعد الدولة إلا الأداة التنفيذية. "... فالمعتزلة دعاة" التحرر الفكري" قد استبقوا الزمن واستعجلوا الأمور فأرادوا في زمن دولتهم أن يحققوا بالإكراه ما لا يتحقق إلا بالإقناع، وأن ينجزوا في برهة وجيزة ما قد يتطلب قرونا."[1]. وفي سبيل ذلك عملوا على تكميم أفواه المحدثين والفقهاء والرافضين للقول بخلق القرآن التي ساندها الخلفاء الثلاث: المأمون، والمعتصم، والواثق وقد أرادوا فرضها كعقيدة رسمية. وقاموا بتكفير المخالفين ممن رفضوا القول بخلق القرآن، ووصفوهم بالحشويين والمشركين.

ثم تولى المحدثون والفقهاء العملية ذاتها عن طريق تكفير وتضليل وتبديع القائلين بخلق القرآن من المعتزلة وأشياعهم. وبذلك أمر المتوكل بترك النظر والجدل الذي هو صنعة المتكلمين من المعتزلة، وأمر الناس بالتسليم والتفويض. وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة.[2]وكانت العقيدة القادرية المثال الشاهد على ذلك؛ حيث"... انقلبت الأمور وراح الخليفة القادر يأمر بقراءة العقيدة الشهيرة القادرية في مساجد بغداد هذه العقيدة التي تمنع ذكر أي شيء يخص عقيدة القرآن المخلوق وتبيح دم من يتحدث عنها. "[3]

كما تولى العملية غير المحدثين والفقهاء ممن امتهنوا الكلام، فيما بعد، حيث قام كثير من متكلمي الأشاعرة والماتريدية بتكفير المعتزلة، ومن دان من المسلمين بالقول بخلق القرآن فـ"... صار الأشاعرة والماتريدية يكفرون من يقول بخلق القرآن؛ أي يكفرون المعتزلة الذين يقول الأشعري عنهم ودانوا بخلق القرآن نظيرا لقول إخوانهم المشركين الذين قالوا"إن هذا إلا قول البشر" فزعموا إن القرآن كقول البشر. ومن ثمة فإن الذي يقول بخلق القرآن كافر يجب البراءة منه."[4]

1/ زهدي جار الله، المعتزلة، ط1، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ، 1947، ص 252.

2/ أبو الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط1، اعتنى به وراجعه: كمال حسن مرعي، بيروت، صيدا، المكتبة العصرية، 2005،ج4،ص71

3/ أركون،الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد،ط3،ترجمة:هاشم صالح، بيروت، دار الساقي، 1998،ص124

4/ عبد الفتاح الفاوي، مرجع سابق، ص199

كما رفع ابن تيمية القول بخلق القرآن إلى درجة الطعن في الشهادتين والإنكار الصريح، بحسبه، لهما وأن القائلين به قد أفصحوا بذلك القول عن كفر بواح؛ فالقول"... بأن القرآن مخلوق أن الله لا يكلم ولا يتكلَّم، ولا قال ولا يقول، وبهذا تتعطل سائر الصفات: من العلم والسمع والبصر وسائر ما جاءتْ به الكتب الإلهية، وفيه أيضاً قدح في نفس الرسالة؛ فإن الرسل إنما جاءت بتبليغ كلام الله، فإذا قُدِح في أن الله يتكلم كان ذلك قدحاً في رسالة المرسلين، فعلموا أن في باطن ما جاؤوا به قدحاً عظيماً في كثير من أصلَي الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله."[1]وذلك يعني أن القول بخلقه هو تكذيب لنصوص الوحيين، وإلحاد في أسماء الله وصفاته، وتعطيل لما يحب الله – عز وجل – من الكمال. وهو بمنزلة الأركان والفرائض؛ فـ"...من قال إنه مخلوق، فقد أبطل الصوم والحج والجهاد وفرائض الله."[2]

وهكذا أسست هذه المواقف والسلوكات، التي اعتمدت الحجر على الآراء ومصادرتها ،بعنوان قدسيتها، لخط استبدادي بدل أن تكون ثمرة نقاش حر ومسؤول وقناعة إيمانية راسخة. وإذا صح قول أركون: "... إن جراثيم الاستبداد وفرض الرأي الأوحد موجودة في ذلك القرار الذي اتخذه الخليفة القادر يوما ما. ولا يزال هذا الموقف التعسفي سائدا في المجتمعات الإسلامية والعربية اليوم"[3] فإن الأصح أن تلك الجراثيم زرعها المعتزلة بيد المأمون ومن بعده الواثق والمعتصم ثم المتوكل والقادر ...إلى يوم الناس هذا؛ ذلك أن"... تقبل ثقافة الآخر لا يأتي بقرار رسمي ولا بمرسوم تشريعي ولا بإرادة سامية، وإنما نتاج جهود واعية ومخلصة شاملة ومتضافرة."[4]وهذا

1/ أنظر: أحمد ابن تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، دط، اعتنى به وخرج أحاديثه: عامر الجزار وأنور الباز،د،م،ن، دت،ج12،ص7.

2/ محمد بن بطة العكبري، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، ط2، تحقيق ودراسة: رضا بن نعسان معطي، الرياض، دار الراية للنشر والتوزيع، 1994، ج1، ص352.

3/ محمد أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب: رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، ط2، بيروت، دار الساقي، 1995.ص200

4/ عباس محمود، ما السبيل لنشر تقبل ثقافة الآخر؟ مجلة ذوات الإلكترونية، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 3يونيو 2015. http://thewhatnews.net/post-page.php?post_alias=_

يفترض أن يكون هو دور العلماء وأهل الفكر في المجتمع.يقول عباس محمود العقاد: "...والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا. والعلماء هم إخوتهم الراشدون؛ إن أيقظوهم هبوا وإن دعوهم لبُّوا وإلا فليتصل نومهم بالموت."[1]

ومن جهة أخرى كان للعلماء والمفكرين، بذلك الصنيع، دورا رئيسيا في التأسيس لوضع طائفي؛ حيث تولى هؤلاء، وعلى مدى خلافة المأمون والمعتصم والواثق. ومن بعدهم خلافة المتوكل والقادر استعداء الدولة ضد المخالفين، واستعداء باقي المكونات ضد بعضها البعض. وهذا يعني أن الدولة اصطفت لمصلحة قراءة أو فهم أو فريق ضد الآخر، ووضعت إمكاناتها المادية والمعنوية في خدمته ضد الآخر. و"... عندما تستند هوية الدولة إلى قراءة محددة للمعتقدات الدينية يكون ذلك إيذانا باستدعاء وضع طائفي تعمل فيه الدولة على إقصاء باقي المكونات العرقية والثقافية والدينية والمذهبية والإثنية."[2]

وكان، بعد كل ذلك، أن أسهم هؤلاء في تجميد المناقشات الفكرية **أوَّلاً** عن طريق تحويل المسألة إلى عقيدة وجعلها بمنزلة الفرض الذي لا يقبل الاجتهاد؛ لأن ذلك يعني تلقائيا استتباع أمرغلق النقاش حوله.**وثانيا**عن طريق النزوع نحو حسم تلك المناقشات بالقوة وبممكنات الدولة القائمة على البطش والتعذيب المادي والمعنوي، بدل فتح ورشات التفكير والنقاش وصناعة فضاءات النقاش الحر.

وحيث يحجر على حرية النقاش والتفكير بالاستعانة ببطش الدولة، أو بتكميم الأفواه أو التكفير والتجهيل تكون الفرصة مواتية لانتشار الإرهاب الفكري. وهو من أقسى الممارسات التي خلفتها مسألة خلق القرآن وما تلاها من أحداث، وكان للعلماء وأهل الفكر الدور الأبرز في التنظير له والتحريض عليه وممارسته في حق المخالفين ؛ عن طريق استخراج وصياغة عناوين الشرك والتكفير والتجهيل وإفساد عقيدة العوام وما إلى ذلك... وكلها عناوين تنقص من حرية الرأي

1/ عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دط، الجزائر، موفم للنشر، 1988، ص14.

2/ //http://www.mominoun.com/articlesمبارك حامدي، الطائفية في اللغة والاصطلاح: بحث في الجذور والمرتكزات وآفاق التجاوز، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، يناير 2017.

وتضيق مساحة الحرية الفكرية وتفتح الباب واسعا للإرهاب الفكري.

هكذا تأخذ النخب العلمائية والفكرية في هذه المسألة أدوارا،وتؤسس لسلوكات تتكشف للقارئ وهي:

استعداء الدولة ضد المخالفين وضد باقي المكونات الفكرية والعقدية.

تكفير المخالفين وتضليلهم وتجهيلهم.

المساهمة في مصادرة الآراء وتكميم الأفواه.

تنشيط الطائفية وتجميد المناقشات الفكرية والمساهمة في نشر الإرهاب الفكري.

إن حادثة خلق القرآن التي تولى فيها أساطين المعتزلة تكفير مخالفيهم ممن رفضوا القول بخلق القرآن وتجهيلهم ووصفهم بالحشويين والمشركين، واستعانتهم، بصورة مرعبة، بالدولة وإمكاناتها من أجل ترسيم فهمهم لإحدى صفات الله تعالى، وإنزال فهمهم وتفسيرهم منزلة العقيدة. وما صاحب كل ذلك من ممارسات استبدادية إقصائية؛ تظهر أنهم ابتعدوا عن الأدوار الحقيقية للعلماء والمفكرين، بل تكشف انقلابهم على دورهم الرئيسي في الحياة العقلية للحضارة الإسلامية؛ منذ القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري؛حيث عدوا إحدى أهم المحطات العقلانية المضيئة في التراث الإسلامي.

وهو ما جعل بعض الباحثين والمفكرين يرفضون أن يكون هؤلاء محطة مضيئة؛ بقدر ما هم ظاهرة أسهمت في إطفاء نور الحرية الفكرية؛ فـ"... خطأ المعتزلة القاتل في استعدائهم الدولة على خصومهم بصدد مشكلة "خلق القرآن" ليس فحسب لأن ممثلي" حرية الفكر" قد مارسوا تقييد الفكر والحجر والرأي وذلك من المتناقضات المفضية للانهيار."[1]كما جعلت المستشرق جولد تسيهر يقول أنهم كانوا "... أكثر فظاعة وقساوة من زملائهم الحرفيين التقليديين. وإنه على كل حال كان تعصبهم أكثر مقتا وكراهية من تعصب ضحاياهم الذين عاملوهم معاملة."[2]وكان"... ما يدعو إلى

1/ أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، مرجع سابق، ج1،ص 349

2/ جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، مرجع سابق، ص 103.

الغرابة أن يكون مصدر هذا التعذيب والمحنة هم الداعين إلى حرية الفكر والقائلين بسلطة العقل. فقد كان الظن بهؤلاء التسامح في العقيدة والبعد عن الضغط والتعذيب."[1]

وكانت إحدى نتائج صنيعهم أنهم رسموا خطاً أسهم في التقليل من قيمة علم الكلام وتراجع منزلته بين العلوم الإسلامية؛ لأنه "... وبسبب هذه المحنة برز اتجاه بين أهل السنة يقضي بتحريم النظر في علم الكلام."[2]؛ أي أن المحنة أسست لمحاولات لا تزال تتكرر من أجل إلغاء قسم كبير من العلوم والمعارف الإسلامية والتشكيك في نسبته وهدفه والاستهانة بموضوعاته. ولا يزال الأمر مستمرا، على نحو واسع، بين طلبة العلم الشرعي؛ يتمثل في ازدراء كبير لعلم الكلام على خلفية الأذى الذي ألحقه علم الكلام والمتكلمون بالعلماء من حملة الفقه والحديث. وفي الوقت الذي كان من الممكن أن يستمر علم الكلام في ممارسة دوره المعرفي والحضاري بوصفه "... مهمازا حقيقيا تتجلى فيه اعتراف الاجتماع الإسلامي بالغيرية الثقافية رغم الاختلاف العقائدي و الديني." [3]نجد أن سلوك المعتزلة التكفيري والتجهيلي كاد يقضي عليه.

ولم يختلف رد فعل الضحايا من المحدثين والفقهاء عن فعل مخالفيهم وجلاديهم من المعتزلة؛ حيث كان "... من أثر هذا حدوث رد فعل عنيف فانتصر المحدثون انتصارا هائلا وأخذوا ينتقمون من المعتزلة بأيديهم وعلمهم وأخذوا يجرحون المعتزلة تجريحا شنيعا."[4]. وأمر المتوكل بترك القول بـ"خلق القرآن" ومنع الناس منه.وتعرض المعتزلة للانتقام والمطاردة والسجن والقتل. وصاروا منذ ذلك الوقت إلى اليوم الخصم اللعين الذي لا يذكر إلا بسوء في الأوساط السنية. وإلى وقت قريب؛ كانت المعتزلة لا تذكر في حلقات الدرس في المساجد والجامعات كالقرويين والزيتونة والأزهر إلا

1/ أحمد أمين، ضحى الإسلام،مرجع سابق، ج3،ص192

2/ علي الشابي، مباحث في علم الكلام والفلسفة، مرجع سابق، ص15

3/ http://www.almultaka.org/site.php?id=425الآخر في الخطاب الإسلامي في الغرب:من الغيرية إلى المواطن، عبد الواحد العلمي

4/ محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد،مرجع سابق، ص199

مقرونة بعبارة"قبحها الله" بل إن هذه العبارة ما زالت متداولة عند بعض الفئات إلى اليوم."[1]

إن مسألة خلق القرآن، كما سبق بيانها، هي مسألة ترتبط بفهم صفة كلام الله تعالى؛ حيث يلحظ الباحث في مواقف مختلف الفرق والآراء أن لا أحدا منهم ينكر أن الله متكلم أو أن الكلام صفة لله تعالى. لكن ما نعثر على الخلاف حوله؛ هو نتيجة الكلام أو ثمرته. وهي القرآن كما التوراة والانجيل؛ وحولها كانت الآراء بين من رآها مخلوقة دفعا لشبهة القدم الخاصة بالله تعالى وحده. ومن رأى وجوب التوقف عن السؤال والبحث في كيفية الصفة، سواء تعلق الأمر بصفة الكلام أو بغيرها، لأن معرفة كيفية الصفات هي فرع عن معرفة الذات. وطالما ثبت لدينا عقلا ونقلا وواقعا استحالة معرفة الذات فقد ثبت استحالة معرفة الصفات.

إن تحويل المسألة إلى أصل من أصول العقيدة الإسلامية، والاستدلال عليها بمختلف الأدلة العقلية والنقلية، سواء من قبل القائلين بها أو الرافضين لها واستماتتهم في ذلك. ثم نقلها إلى الدولة، واستعداء أجهزتها على الرافضين للقول بخلق القرآن من المحدثين والفقهاء ومن شايعهم. ثم استعداءها على القائلين بعدم خلقه أو التوقف عن الكلام فيه، وتولي الدولة محاولة فرض القول به، ثم فرض رفضه هو ما يكشف للباحث وجها آخر للعلماء والمفكرين يجري محاولة تغييبه في الراهن الإسلامي، على الأقل في هذا الموضوع، وهو أن العلماء وأهل الفكر هم شركاء في التضييق على الحرية، وشركاء في تكميم أفواه المخالفين في تاريخ الفكر الإسلامي.وهم من كان وراء إنزال موضوع، بهذه الصعوبة والدقة والحساسية، إلى العوام وإخراجه من بطون الكتب وحلق المناظرات إلى محالِّ العامة. وهم من وقف وراء تغليط الحكام والزج بهم في مواجهة العامة أو المجتمع، وليسوا دائما هم ضحية السلطات السياسية الاستبدادية.

إن سلوك الإقصاء وثقافة الحجر على الآراء مرفوضة وممجوجة، من حيث المبدأ، وقد ألف العقل الإنساني شهودها وسماعها من جانب السلطات والحكام وأصحاب النفوذ والمصالح التي يمثلها فرعون وهامان وغيرهما ممن سماهم القرآن الكريم الملأ الأعلى. وفي الوقت نفسه تعود هذا

1/ أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج3، ص88.

العقل أن يحتمي بالعلماء والصالحين وأهل الفكر من ورثة الأنبياء ضد هؤلاء. ولذلك يكون صوت الإقصاء وسلوك العنف قاسيا ومرعبا ومدمرا للمجتمعات والدول والقيم والمبادئ حينما يصدر من العلماء والمفكرين، ومن يفترض أن يكونوا أهل الحكمة والرأي. ومن هنا نفهم لماذا يحذر النبي صلى الله عليه وسلم من خطأ العلماء ولماذا يجعل رفعهم إيذانا بخراب العالم وقيام الساعة.[1]

إن قلم العالم وكلمات المفكر تمتلك ممكنات التحول والتغيير أكثر من الممكنات التي تمتلكها السلطة وإمكاناتها المادية والمعنوية.ولذلك نستغرب بالعالم والمفكر احتماءه ببطش الحاكم؛ وإن العالم أو المفكر والنخبة التي تحتمي بظلم السلطة من أجل تمرير أفكارها؛ هي، في الواقع، كمن يشك في قدرة الكلمة أو الفكرة وافتقارها إلى القوة التي تؤهلها لأن ترسخ وتنتشر.فالفكرة القوية لا تحتاج إلى بطش السلطة وظلمها من أجل التمكين لها.

ولذلك يتساءل الباحث، بإزاء الموضوع، : هل التمكين للعقيدة الإسلامية يكون عبر مصادمة باقي الخيارات العقدية، ومواجهة سائر الفهومات والآراء والتضييق عليها ووسمها بالكفر والضلال والبدعة؟؟؟ وهل نصرتها تكون بحمل الناس عليها عنوة أو كرها اعتمادا على بطش الدولة وجبروتها؟ وهل الانتصار لفهم يعني إلغاء المخالف عبر تكفيره وقتله وسجنه وتعذيبه؟ ومن يتولى، حينئذ، الدفاع عن الخيارات العقدية والقناعات المعرفية وتمثيلها إن لم يفعله العلماء والنخب؟

إن ذلك بعضا مما أفصحت عنه مسألة خلق القرآن وما تلاها من أحداث، وكشفته بعض الأقلام من ممارسات لعلماء وأهل الفكر في التاريخ الإسلامي. وهو ما يقودنا إلى التساؤل عن الدور الحقيقي للعالم والمفكر من المنطلق الشرعي والمبدئي الذي تؤمن به كل المجتمعات والشعوب الحرة في العالم اليوم.

لقد أظهرت لنا مسألة خلق القرآن، وما تلاها من أحداث، كما سبق بيانه،الوجه الآخر لطبقة من العلماء والمثقفين والنخب. هذا الوجه الذي كثيرا ما حاولت هذه النخب ذاتها إخفاءه

1/ إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم عن أنس رضي الله عنه: "إن مِنْ أشراط السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ وَتُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا."[ابن حجر العسقلاني، فتح الباري...، كتاب العلم، باب: رفع العلم وظهور الجهل،ج1، ص214.]

وتبريره؛ حيث يسمي المفكر المغربي محمد عابد الجابري ما حدث من قبل المتوكل بـ" "انقلاب الدولة على المثقفين" إذ يقول:"... إن الأمر في الحقيقة كان انقلاب الدولة على المثقفين الذين استعملتهم زمن المأمون والمعتصم والواثق في ممارستها سيطرتها وهيمنتها من جهة ولجوئها من جهة أخرى إلى طلب ود "المثقفين" الآخرين الذين كانوا مضطهدين وذلك لاستعمالهم كأدوات للسيطرة والهيمنة؟"[1]

غير أن ما سبق عرضه يظهر أن العلماء والمفكرين ليسوا الضحية التي تستغلها السلطات كما يكثر الترويج له، وكما يصفه الجابري، بقدر ما يظهر أنها شريك ومحرض. ولا يزال رهط كبير منها يمارس الدور ذاته إلى اليوم في الكثير من بلدان العالم العربي والإسلامي، يظهرون شراسة كبيرة في التضييق على مخالفيهم بصورة تفوق ما تفعله الأنظمة الاستبدادية والمنغلقة؛وهي بذلك تعد شريكا قويا في تصفية دورها.ولذلك فإنه، عوض أن نسمي ما حدث انقلاب السلطة على المثقف أو العالم أو النخبة؛ فلنسمه انقلاب المثقفين على دورهم وتخليهم عن مسؤوليتهم الحقيقية؛ وهي أن يكونوا صوت الحق وصوت العامة وحراس مصلحتها والأمناء على حاضرها ومستقبلها.

إن تجربة "المثقفين" المعتزلة و"المثقفين" السنيين الحنابلة في تفجير المحنة ثم الانتقام "للمحنة " بممارسة محن اجتماعية وفكرية أخرى. هي تجربة ممتدة عبر التاريخ العربي الإسلامي، ولا زالت بعض فصولها ماثلة أمامنا اليوم."[2] أو هي ظاهرة أو حالة أسماها المفكر المغربي عبد الإله بلقزيز "نهاية الداعية". ويقصد بها تراجع دور المثقف عن الأدوار الحقيقية، وانقطاع صوته في مقابل صعود أصوات لا علاقة لها بالشأن المعرفي أو حتى الشأن العام.

إن تلك العلاقة غير الصحية بين السلطة السياسية والنخب العلمية والفكرية؛التي تتمثل في استعمال أو طلب المفكر النجدة من السلطة الظالمة؛ من أجل نشر فهمه أو فكره وتفسيره لعقيدة في الدين أو في غيره، وتعميمه عن طريق ترسيم الدولة له وإقصاء باقي الفهوم والتضييق

1/ محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية... ص109.

2/ المرجع نفسه، ص109

عليها.واستعمال طرق البطش والعنف من أجل ذلك هي التي لا زالت تفسد المشاريع الفكرية في العالم العربي والإسلامي إلى اليوم؛ ذلك أن أهداف الفكر ليست هي بالضرورة أو ليست هي دائما أهداف السياسة، ولا آليات الفكر هي آليات السياسة.

ثم إن تلك الصورة هي ربما ما جعلت المفكر المغربي عبد الإله بلقزيز يذهب إلى القول بأن النصوص الكبرى في الفكر الإسلامي، سواء في الكلام أو الفقه أو أصول الفقه، إنما كانت وراءها سلطات سياسية دعمتها ووفرت لها طريق الانتشار بين الناس؛ أي أن خلودها وبقاءها إنما وفرته لها تلك الأنظمة، ولم يكن قوة معرفية تميز هذا النص أو تلك المدونة. يقول الباحث عبد الإله بلقزيز:"... إن سلطان نصوصه(يعني الفكر الإسلامي) التأسيسية مثل الإبانة في أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري، وتفسير الطبري ورسالة الشافعي وإحياء علوم الدين للغزالي لم يكن دائما سلطانا معرفيا وإنما أصبح كذلك بقوة السلطان السياسي الذي رأى فيه العقيدة المطابقة لمصلحة الدولة والنخبة الحاكمة."[1]

ومع كونها وجهة نظر تستبطن شططا بيّنا؛ ينسف بالحمولة المعرفية التي يتضمنها النص ليجعل رسوخه وامتداده واستمراريته عائدا إلى السلطة أو النظام الذي يسَّر له الطريق إلى ذلك. إلا أن ذلك لا يعني أن الظاهرة غير موجودة، أو تعني أن نضرب الصفح أو نغض الطرف عن تلك العلاقة غير الصحية؛ التي ترغب في الإبقاء عليها بعض النخب والعلماء بحجة محدودية قدرات العالم أو المفكر. ومن ثمة حاجته إلى السلطة التنفيذية من أجل تنفيذ المشاريع الفكرية.

ولذلك يكون من الضروري للنخب العالمة والفكرية أن تعمل على تصحيح وضعها وفهم دورها بعيدا عن السلطات الظالمة، وأن تحاول أن تضمن حدا أدنى من الاستقلالية وعدم التعويل على هذه السلطة أو المراهنة على إمكاناتها المادية والمعنوية من أجل تمرير أفكارها أو مشاريعها.

1/ عبد الإله بلقزيز، محمد أركون: المفكر والباحث والإنسان، حلقة نقاشية نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،فبراير 2011، ص11

الخاتمة:

لقد كشفت لنا حادثة خلق القرآن ومحاولة ترسيمها، وما أعقبها مجموعة من النتائج نجملها في خاتمة هذا العرض؛ وهي:

1/ إن حادثة خلق القرآن، في السياق الإسلامي، أسست لسنة التخلي عن المواقع الحقيقية والساحات الفعلية للمناظرات والنقاشات الفكرية، والاستعاضة عنها بالدولة ومؤسساتها القمعية وأساليبها الاستبدادية.

2/ أفصحت الحادثة عن عجز الكثير من النخب العلمائية والفكرية عن إيجاد الموضع أو المكان الطبيعي للفهوم والأفكار وكيفية الحفاظ عليها وتفعيلها. ولذلك وجدناها تلجأ إلى تقديس ذلك الفهم أو الفكرة، وإنزاله منزلة العقيدة المقدسة ثم الاستعانة بالدولة وإمكاناتها من أجل الحفاظ عليها وتكريسها بالقوة.

3/ إن الحادثة كشفت عن أن تحالف العلماء والمفكرين مع السلطة السياسية والاستعانة بإمكاناتها المادية والمعنوية الموصوفة، في الغالب، بالاستبداد؛ هو من أهم أسباب سقوط المشاريع الفكرية وتراجعها في التاريخ والحاضر الإسلاميين.

4/ إن حادثة خلق القرآن؛ كشفت عن تحول كبير في دور الكثير من تلك النخب نحو التنظير والتحريض على التكفير والتبديع والتقسيم الطائفي، وكثير منها لا يزال يلعب الدور ذاته إلى اليوم. ولذلك بات من المهم، اليوم،أن تعي دورها وأن تعمل على إعادة بناء قيم التسامح البيني وقبول الآخر الداخلي في لحظة تشهد فيها المجتمعات العربية والإسلامية مدا كبيرا لثقافة رفض المخالف وإقصائه بقوة السلاح وشن الحروب.

5/ إنه على المستوى الفعلي قد تتشابك العلاقة بين الطبقة العلمائية والنخب الفكرية والسلطات السياسية الحاكمة؛ فتفضي إلى تداخل أو هيمنة وتوجيه من أحدهما للآخر. ولذلك بات من الضروري، أيضا،فرز تلك العلاقة وفهمها بغرض توفير مناخ صحي لخلق ونشأة ونمو الأفكار والفهوم بعيدا عن استغلال المتنفذين وأصحاب المصالح والأهواء في العالم الإسلامي من أجل زرع الفتن ونشر ثقافة الحقد والكراهية بين أبناء الملة الواحدة.

قائمة المصادر والمراجع:

/ **أركون** محمد، الإسلام... أوروبا،...الغرب: رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، ط2، بيروت، دار الساقي، 1995.

//////// الفكر الإسلامي:نقد واجتهاد، ترجمة:هاشم صالح،ط3،بيروت، دار الساقي، 1998.

////////// من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب،ترجمة وتعليق: هاشم صالح، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2001.

/ **أمين**أحمد ، ضحى الإسلام ،ط10،بيروت، دار الكتاب العربي،دت،ج3.

/ **بلقزيز**عبد الإله، محمد أركون: المفكر والباحث والإنسان، حلقة نقاشية نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،فبراير 2011.

/ **التفتازاني** أبو الوفا، علم الكلام وبعض مشكلاته، دط ، القاهرة، المكتبة الحديثة، 1966

/ **تسيهر** جولد ، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى، دط،بيروت، دار الرائد، العربي، 1964.

/ ابن **تيمية** أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى،ط1، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد النجدي، المملكة السعودية، مطابع الرياض، 1381هـ، ج12.

/ **الجابري**، محمد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة أو نقد علم الكلام ضدا على الترسيم الأيديولوجي للعقيدة ودفاعا عن العلم وحرية الاختيار في الفكر والفعل، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998.

/////////، المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، ط3، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، أفريل 2008.

/ **جار الله** زهدي ، المعتزلة، ط1، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ، 1947.

/ **جدعان** فهمي، المحنة: بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام، ط1،د م ن، دت.

/ **الراوي**عبد الستار ، العقل والحرية، ط1، بيروت، دار المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1400هـــ/ 1980م.

/ **الشابي**علي ، مباحث في علم الكلام والفلسفة، ط1، ليبيا، دار الكتب الوطنية،2002.

/ **شاكر** مصطفى، دولة بني العباس، ط1، وكالة المطبوعات، الكويت، 1973، ج1.

/ **الشهرستاني** محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل، تعليق: أحمد فهمي، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992،ج1.

/ **صبحي** أحمد محمود، في علم الكلام، ط5، بيروت، دار النهضة العربية، 1405هـــ/ 1985م، ج1.

/ **الطبري**محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك، ط2،بيروت، دار الكتب العلمية، 1408هـ/ 1988م.

/ **عبد اللطيف** كمال، في الاستبداد: بحث في التراث الإسلامي، ط1، بيروت، منتدى المعارف، 2011

/ **العسقلاني** ابن حجر ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دط، دار الريان للتراث، 1407هـ/ 1986م

/ **الفاوي**عبد الفتاح ،المقالات العشر في منهج علم الكلام وقضاياه،دط، جامعة القاهرة، 1993.

/ **القاضي** عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ط2، تحقيق: عبد الكريم عثمان، القاهرة، مكتبة وهبة، 1988.

/////// المغني في أبواب التوحيد والعدل، دط،تحقيق: محمود الخضيري ومحمود قاسم، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دت، ج7.

/ **الكعبري** محمد بن بطة ، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، ط2، تحقيق ودراسة: رضا بن نعسان معطي، الرياض، دار الراية للنشر والتوزيع، 1994، ج1

/ **الكواكبي**عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دط، الجزائر، موفم للنشر، 1988.

/ **المسعودي**أبو الحسن بن علي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط1، اعتنى به وراجعه: كمال حسن مرعي، بيروت، صيدا، المكتبة العصرية، 2005،ج4

/ **المعتق**عواد بن عبد الله ، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، ط4، المملكة العربية السعودية، الرياض، مكتبة الرشد، دت.

/ **النشار**علي سامي ، نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام،ط8، القاهرة، دار المعارف، دت.

المواقع الإلكتروني:

http://www.almultaka.org/site.php?id=425الآخر في الخطاب الإسلامي في الغرب:من الغيرية إلى المواطن، عبد الواحد العلمي

http://thewhatnews.net/post-page.php?post_alias= عباس محمود، ما السبيل لنشر تقبل ثقافة الآخر؟ مجلة ذوات الإلكترونية، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 3يونيو 2015.

http://www.mominoun.com/articles/ مبارك حامدي، الطائفية في اللغة والاصطلاح: بحث في الجذور والمرتكزات وآفاق التجاوز، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، يناير 2017.